ذكريات طالب

عبدالله سالم

abdullah2246800@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وخاتمة

كنت طالبًا كأغلب الطلاب، لم أكن خارقًا للعادة، ولم تحدث لي أو بمرأى مني أحداثًا فوق اعتيادية، كل ما في الأمر أني قررت كتابة شيء من ذكرياتي لأحتفظ لنفسي بصورة من الماضي قبل أن تفلت من ذاكرتي، وهي عادة سيئة لدى الإنسان وحده، يحتفظ ببعض ماضيه في أوراقه أو في دماغه، كأن شقاء الحاضر لا يكفيه حتى يحتفظ ببعض شقاء الماضي حيًا في حاضره.

هذا هو السبب الحقيقي لكتابتي هذه الأوراق، فأما الأسباب التي نقابلها في مقدمات بعض كتب الذكريات والسير الذاتية.. فلا أدّعيها كذبًا، ذاك لأني لم أكتب ما كتبت لأهدي للقراء خبرة تنفعهم في حياتهم، لا لأنه لا يمكن لذكريات عادية أن تحقق هذا الهدف، بل لأني كتبت هذه الذكريات لنفسي متخففًا من عبء الكتابة لجمهور من القراء، ولم يخطر على بالي وأنا أكتب أن أنشرها في يوم من الأيام.

ولا أدّعي أن الأفكار الواردة في هذه الذكريات هي نتاج تفكير عميق وشاق، بل هي في أغلبها خواطر تواردت إلى الذهن فقيّدتها هنا، ثم اكتشفت بعد بضعة أشهر أني فقدت الحماس لبعضها أو تراجع اقتناعي بها، فأبقيت عليها ولم أحذفها؛ لأحتفظ لنفسي بصورة من طريقة التفكير، كما احتفظت لها بصورة من الذكريات.

والله الموفِّق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

لم أحظَ بالدخول إلى روضة الأطفال، فما كان لها وجود في قريتي الصغيرة ولا فيما جاورها، ولعلي لم أكن سمعت بها أصلًا، لكني عرفت الطريق إلى المدرسة قبل عام من التحاقي بها رسميًا، فقد كنت كثيرًا ما أتردد عليها برفقة والدي المعلم في تلك المدرسة، فأحضر بعض الحصص الدراسية مع تلاميذ الصف الأول الابتدائي، وأتعرف على أجواء المدرسة ونظامها وطابعها العام، وأنا مع ذلك حرّ من قيود كثيرة تفرضها المدرسة على تلاميذها، فما كنت محاسَبًا على غياب، ولا ملزمًا بكتابة واجب منزلي أو حضور اختبار.. كان يسمى من هذه حاله من الأطفال (مستمِع)؛ وهم قلة قليلة جدًا، يغلب عليهم أن يكونوا من أبناء المعلمين في تلك المدرسة.

وما كانت علاقتي بالمدرسة مقتصرة على هذه الناحية، فقد أحضر لي والدي كتبَ الصف الأول الابتدائي ليطلعني على ما فيها قبل أن ألتحق بالصف الأول في العام القابل لذلك العام، كما كان يعلّمني قصار السور ومبادئ القراءة

والكتابة والحساب، مستعينًا في بعض ذلك ببعض الكتب المخصصة لتعليم الناشئة ككتاب (القراءة الرشيدة)، وما كان حرصه على تعليمي يضايقني أو يجلب لي الملل، فقد أَلِفتُ الكتاب رغم صغر سني وأحببت الاستزادة من العلم، وهو الأمر الذي سيتنامى معي بعد ذلك حتى يصبح نوعًا من الشغف اللذيذ.

* * *

شرعت المدرسة أبوابها في افتتاح العام الدراسي، وتوافد إليها التلاميذ من سائر أرجاء القرية والقرى المجاورة. كنت أحث الخطى نحو المدرسة برفقة والدي، أسبقه تارة استعجالًا لبلوغِ المدرسة، وأتخلف عنه تارة أخرى لأنظر في أفواج التلاميذ بملابسهم البيضاء الناصعة وحقائبهم المتواضعة، فما كان يوجد تفاوت كبير بين التلاميذ في ملابسهم وحقائبهم، وما كانت لديهم من وسائل نقل إلا أقدامهم، ما عدا قليل منهم تصعد وتهبط بهم دراجاتهم الهوائية على طريق متعرج أو بين حقول الذرة والنخيل.

وفي ساحة المدرسة وقفت مع مئات التلاميذ في الطابور الصباحي، ووقف أمامنا المدير بشخصيته الحازمة ومعه بعض المعلمين، ثم ما لبث بعد توجيهات يسيرة أن أشار لنا بالولوجِ إلى حجرات الدراسة، فانطلقنا في نظام فرضه حزم المدير والتزم به أغلب التلاميذ، وإن كان أكثرهم يضيقون ذرعًا بما يفرض عليهم من نظام في الدخول والخروجِ وآداب للتخاطب وما سوى ذلك، ويعدون ذلك تقييدًا لهم وتضييقًا عليهم، وهم في ذلك إنما يعبرون عن رغبات منطقية بالنسبة لمن هم في ذلك العُمر، ولكنها تعرقل سير الدراسة لو سُمح بها، والمعلم الناجح – كالأب الناجح – هو من يتخذ من الحزم وسيلة لتهذيب سلوك الطفل وتعليمه. ويتصل بهذا الموضوعِ ما يجب للطفل من حق السماح باللعب واللهو، فليس من الحكمة في شيء أن ينتظر الأب أو المعلم من الناشئ أن يكون في رزانته وجده، وأن يدأب ساعاته كلها في طلب العلم وتحصيله، ولا يصلح في هذا المقام الاغترار بما يرد في سير بعض الأئمة من دأب بالغ في طلب العلم ونفور عن اللهو، كقول ابن الجوزي متحدثًا عن نفسه في كتابه (لفتة الكبد إلى نصيحة الولد): «فإني أذكر نفسي ولي همة عالية وأنا

في المكتب ولي نحو من ست سنين، وأنا قرين الصبيان الكبار قد رُزِقتُ عقلاً وافرًا في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع صبي قط، ولا ضحكت ضحكًا جارحًا... ولقد كان الصبيان ينزلون دجلة، ويتفرجون على الجسر، وأنا في زمن الصغر آخذ جزءًا، وأقعد حُجزةً من الناس إلى جانب الرِّقة فأتشاغل بالعلم»، فهذا وأمثاله مما يحكى عن بعض الأفذاذ أو يحكونه عن أنفسهم لا يوافق أغلب الناشئة، وليس من بالغ في تحصيل العلم راضيًا مختارًا كمن اختير له جبرًا وقهرًا، والإنسان كبيرًا أو صغيرًا لا يخلو من رغبة في اللهو يروِّح به عن نفسه ويستعيد به نشاطه.

* * *

تتلمذت على يد كثير من الأساتذة، منهم من فارق الدنيا إلى رحمة الله، ومنهم من أحيل إلى التقاعد، ولا يزال بعضهم يؤدي رسالته السامية. تعلمت منهم مبادئ العلوم، وأحببت فيهم أخلاقهم الفاضلة، وبساطتهم المحببة. كان كل شيء يتسم بالبساطة؛ مبنى المدرسة رغم اتساعه، وملابس المعلمين والتلاميذ، ولهجتهم القروية البريئة من التحذلق، وأسلوب المعلمين في إلقاء

الدروس، فما كان جميعهم في مستوى علمي مميز، بل كان بينهم تفاوت ملحوظ، لكن أغلبهم يمتلك زمام التوصيل الجيد للدرس إلى أذهان التلاميذ بسهولة ويسر، ولعل ذلك نتيجة الخبرة الطويلة في حقل التعليم.

ولا يعني ما سبق أن كل شيء جرى كما آمل وأشتهي، فقد ارتطم بي حظي العاثر أحيانًا في مطبات لم يكن لي مفرّ منها.. من ذلك أن أحد المعلمين كان متطرفًا في رضاه وسخطه؛ فإذا رضي عن تلميذ إجابته كال له المديح بلا حساب، أو قذفه بوابل من الشتائم إن لم تأتِ الإجابة على هواه، وإن كانت الإجابة في الكراس فاض قلم المعلم على صفحة كاملة ببالغ الثناء وطيب الدعاء، وإلا هجاه هجاء عنيفًا في حقيقته وإن كان هينًا على التلاميذ، ذلك أنهم ما كانوا يجيدون قراءته أصلًا. وأمر آخر أرهق هذا المعلم التلاميذَ به؛ إذ كان كثيرًا ما يؤاخذهم جميعًا بجريرة واحدٍ منهم إن لم يعلمه على وجه اليقين، كأن يُحْدِث أحدهم جلبة على غفلة منه، وهكذا قد تقع العقوبة على الأبرياء كما تقع على المذنبين.

ومعلم آخر لا يُفهم من معاملته التلاميذ إلا أنه كان يتلذذ بضربهم وإيلامهم، فكان في مفتتح كل حصة يطرح سؤالًا بالغ الصعوبة بالنسبة للتلاميذ، ويكون الضرب عقوبة من يعجز عن الإجابة، وكثيرًا ما يكون التلاميذ جميعهم.. سألَنا مرة: من هم الثلاثة أشهر فلاسفة اليونان؟ وسقط السؤال على رؤوس التلاميذ كالباقعة، ولما ألحوا على عقولهم أن تواتيهم بالإجابة فما استطاعت، هوت العصا على أكفهم الصغيرة دون شفقة.

تلك كانت لمحة مبتسرة من ذكرياتي كطالب عن أساتذتي في المرحلة الأساسية، ما إن انتهيت منها حتى باغتتني نفسي بسؤال: وماذا عن المعلمات؟ هل يشملهن الحديث السابق عن المعلمين أم لهن حديث خاص؟ والحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب أولًا التأكيد على تفاوت المعلمات معرفيًا وسلوكيًا كشأن المعلمين، وثانيًا التنبيه على قلة عدد المعلمات اللاتي تتلمذت على أيديهن في مشواري التعليمي، الأمر الذي قد يؤدي إلى قصور في الملاحظات والاستنتاجات.

كانت أول تجربة لي في التتلمذ على معلمات حينما انتقلت من مدرستي التي اعتدت عليها إلى مدرسة لا أعرف أحدًا فيها، فساعدني على التأقلم فيها زملاءُ الصف، ثم معلمة كانت خير عون لتلميذ انتزعه القدر من أحضان قريته الوادعة إلى مدينة تموج بالبشر، وما كانت المعلمات الأخريات بأقل عونًا له من زميلتهن، وأعتقد أن العاطفة الجياشة لدى المرأة هي التي رجحت كفة المعلمة على المعلم في هذه الناحية، واختلاف طبيعة المرأة عن طبيعة شقيقها الرجل يبرز في مناحي شتى؛ فالمرأة العاملة مثلًا تميل إلى التطبيق الحرفي لقوانين العمل المنوط بها القيام به، فلا يندّ منها في ذلك تسامح وإن بدا في بعض الأحيان مقبولًا جدًا وله مبرراته وظروفه الخاصة، ولقد شهدت في عهد الدراسة من بعض المعلمين تسامحًا مع الطلاب يصل أحيانًا إلى حد التفريط في الواجب، ولم أشهد من المعلمات إلا إصرارًا على الالتزام الدقيق بما يمليه الواجب بلا تراخي.

وأخيرًا فإن الحديث عن المعلم هو من جانب آخر حديث عن الطالب، فهو – أي الطالب – مركز العملية التعليمية وأساسها، لا بمعنى عزله عن بقية

العناصر المشكِّلة لمنظومة التعليم، لكن بالنظر إلى موقعه المحوري بالنسبة للعناصر الأخرى، وبالتالي فكل جهد يبذل في سبيل تحسين أي عنصر هو في الأخير يصب في مصلحة الطالب، وإنما يكون هذا الجهد أرجح من غيره في ميزان المصلحة التعليمية بمقدار اقترابه من المصلحة المباشرة للمحور (الطالب) ولصوقه به أكثر من غيره، فعلى سبيل المثال لا يمكن الفصل بين اختيار الكفء لقيادة مسيرة التعليم في بلد ما أو تحسين أجور المعلمين عن المستوى المرجو من التلاميذ، ذلك أنه لا يمكن أن يتقدم المستوى التعليمي لأفواج التلاميذ باستمرار ما لم يعضده بقوة من سائر الاتجاهات نظامٌ تعليمي متماسك وسليم.

* * *

مما يبعث على الأسى أن المدرسة لم يكن لها دور في تشجيعنا على القراءة، غير أني ولحسن حظي أحببت القراءة عن طريق والدي وفي مرحلة مبكرة من عمري.. كنت أشاهد والدي يكثر المطالعة، فاعتدت على هذا المشهد، غير أني كلما دفعني الفضول لأتصفح كتابًا أصاب بالخيبة لأني لا

أفهم منه شيئًا، فأكتفي بالوقوف بخشوعٍ أمام رفوف الكتب، مع كثير من الدهشة إزاء الكتب ذات المجلدات المتعددة، فما كنت أرى في مكان آخر مثل هذه الكتب الكبيرة!

وقبل أن أتجاوز التاسعة من عمري أمدّني والدي بمجموعة كتيبات تاريخية للناشئة من تأليف عبدالحميد السحار، بالإضافة إلى كتاب تعليمي عنوانه (القراءة الرشيدة)، وكتيبات مصورة عن أيام العرب في جاهليتهم وإسلامهم؛ كيوم البسوس ويوم داحس والغبراء وأيام العراق، هذا سوى كتب أخرى تحوي قصصًا عن أشعب الطماع وعمرو بن كلثوم التغلبي، وسوى كتب المنهج الدراسي التي كان يستعيرها من المدرسة لأطّلع عليها في الإجازة الصيفية، فلا نبدأ الدراسة في السنة القادمة إلا وقد صار لي بتلك الكتب أُنس ومعرفة.

سررت بهذه الكتب غاية السرور، واغتبطت بها أشد الاغتباط، ولكن ما كان ليخطر على بالي أنها ستحدد مجرى حياتي، وأنها ستشكل لي أول خطوة في طريق القراءة والذي ما زلت إلى اليوم وبعد حوالي عقدين من الزمان أستمتع

بمواصلة السير فيه. وإذا كنت قد نسيت حتى عناوين كثير من الكتب التي قرأتها فإني لا أنسى تلك الكتب التي شكّلت فاتحة تعلقي بعالم الكتاب، ولا أنسى تلك الأوقات الجميلة التي عشتها برفقتها، يوم أن كنت أغيب عن كل ما حولي لأطوي الزمان إلى الوراء، إلى عصور سحيقة في القِدم.. أنظر إلى آدم وحواء عليهما السلام وحيدين في هذه الأرض الفسيحة، وألهث مع السيدة هاجر وهي تسعى بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء لطفلها إسماعيل عليه السلام، وأستغرق منصتًا لخطب قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ..

أتذكر الآن ذلك الذهول الذي يلفني أثناء القراءة، فكنت أطلق لخيالي العنان متجاوزًا أطر الزمان والمكان، بل كثيرًا ما يسعفني الخيال لتعديل أو إتمام ما أحسبه حينها ثغرة أو قصورًا في سرد الحكاية أو الحدث التاريخي.

* * *

عندما كنا صغارًا كان يقال لنا: أنتم لم تخوضوا تجربة الحياة بعد، ولن يكون هذا إلا بعد أن تنهوا دراستكم وتشقوا طريقكم في الحياة..

والحق عندي أن هذا القول أصاب من جهة وأخطأ من جهة أخرى..

أصاب إذ قرر مسلّمة لا ينازِع فيها أحد وهي أن تقدم سن الإنسان عامل مهم في اكتساب الخبرة بالحياة واستيعاب دروسها، إذ إن هذه الخبرة عملية تراكمية تبدأ مع الإنسان منذ أول أيام حياته، وتستمر معه إلى يوم وفاته.. تتغير باستمرار نظرته للحياة، ويختلف بين الأمس واليوم حكمه على الأشخاص والأشياء، ليس في نوعِ الحكم فقط، بل وفي الوقت الذي استغرقه إصدار هذا الحكم.

وأما خطأ المقولة السالفة فليس فقط فيما يدل عليه ظاهرها من نفي اكتساب الخبرة بالحياة عن سنوات من عُمر الإنسان، إذ إن حكاية هذا التصور تغني عن نقضه، ووضوح بطلانه يحول دون اعتقاده، وإنما يقع الخطأ ويتسرب الوهم عند القائل بهذه المقولة من تصور شائع فحواه أن كلًّا من عمر الإنسان ومعرفته بالحياة خطان متوازيان يتقدم أحدهما بتقدم الآخر، ويعبرون عن هذا بقولهم: «أكبر منك بيوم، أعلم منك بسنة»، وما شابه، غير أن إمعان النظر في

هذه المسألة يؤكد بما لا مجال للشك فيه أن السن ليس هو العامل الوحيد لاستيعاب التجارب والاستفادة منها، فهناك عوامل أخرى كالبيئة والتربية تجعل الناس يتفاوتون في هذا الأمر، ولو كان اختلاف الأعمار هو الحاسم الوحيد في هذه القضية لتساوى أبناء الثلاثين في التجربة الحياتية، وتساوى أبناء الأربعين، ولكن الحوادث ومعايشة الناس لا تدع مجالًا لهذا الزعم، وتؤكد المرة تلو الأخرى أن شابًا في العشرين قد يكون أدرى وأكثر معرفة بالحياة من شيخ في الستين.

التربية والبيئة ومستوى الذكاء كلها عوامل تجعل الناس يتفاوتون في فهم الحياة، واختلافهم في مقدار معايشة الناس على اختلاف طباعهم مهم أيضًا في هذا الصدد، فالطفل الذي تجبره الظروف على خوض معمعة الحياة من أجل لقمة العيش تنضجه التجارب أضعاف ما تفعل بأقرانه، كما أن من لا يضع حقيبة السفر عن كتفه، أو عصاه عن عاتقه كما يقول أجدادنا، يكون أكثر معرفة بطبائع الناس وسنن الحياة ممن لا يزاول موطنه.

والتجارب التي يمر بها الإنسان في رحلة الحياة يتكرر مضمونها في كثير من الأحوال ولا تتبدل سوى صورها وهيآتها، وجزء مهم من الخبرة بالحياة هو في استيعاب المضمون وعدم التوقف عند صورة التجربة، لأن التوقف عندها يعني عدم الإفادة المرجوة من سابقاتها، وسوف أسوق هنا مثالًا يوضح هذه الفكرة..

أتذكر أن التأخر عن الطابور الصباحي وعن العودة إلى حجرات الدراسة بعد انتهاء فترة الاستراحة كان يعد ذنبًا يستحق صاحبه العقوبة، وكنت لا أحمل في داخلي اعتراضًا على اعتبار التأخر الثاني ذنبًا، ولكني كنت أمقت الطابور وأتغيب عنه عامدًا، معرضًا نفسي للعقوبة والتي كثيرًا ما أنجو منها بالحضور قبل انتهاء الطابور بلحظات، أو بالتسلل بعد انتهائه إلى الصف في غفلة من المعلمين.

كان كرهي لهذا الطابور من ناحيتين:

الأولى وهي الأهم (والأسوأ): التعرض لأشعة الشمس الحارة لمدة قد تتجاوز النصف ساعة مما يعرض الطلاب للإصابة بضربة الشمس، ولا أذكر عدد المرات التي سقط فيها بعض الطلاب أثناء الطابور مغشيًا عليهم.

والناحية الثانية: هي رتابة ما تسمى بالإذاعة المدرسية وغثاثتها، إذ يقف أمام الطلاب في صباح كل يوم دراسي مجموعة من زملائهم ليقدموا بطريقة باردة بضعة فقرات دينية وثقافية وتوعوية ينقصها كلَّ شيء، بدءًا من اختيار الطلاب أنفسهم ومرورًا بانتقاء المادة المقدمة وانتهاء بطريقة الإلقاء. الطريف حقًا والمؤسف في الآنِ نفسه أن عقوبة التأخر عن الطابور قد تكون بالمكث في الساحة طول الحصة الأولى (٤٠ دقيقة)، وقد يمتد ليشمل الحصة الثانية أيضًا، ليردد الطالب بلسان الحال المثلَ القائل: «كالمستجير من الرمضاء بالنار».

أعود فأقول: كان التأخر صباحًا عن الطابور، وضحًى بعد فترة الاستراحة، يعد ذنبًا من منظور الإدارة المدرسية، فكان مدير المدرسة ذات عام دراسي

يدفع بأحد المعلمين ليقف على مدخل المدرسة ويحجز لديه المتأخرين من الطلاب الذين قد يبلغ عددهم العشرات.. وقف أمامهم يومًا وقد ازدحموا في ركن من الساحة – وكنت أحدهم – ينتظرون ضربتين بالعصا تكون بمثابة التأشيرة لدخول حجراتهم الدراسية، وبينما كان المعلم يتأهب لأداء مهمته الخطيرة لمح من بين الطلاب طالبًا تصله به علاقة نسب كما عرفت فيما بعد، فابتسم لذلك الطالب، وانقلبت الضربتين إلى نصيحة فاترة وتحذير من تكرار التأخير.

وكان درسًا..

ربما انصرفت وأنا سعيد بهذه المصادفة التي أنجتني من العقوبة..

وربما انصرفت وأنا حانق على هذا المعلم الذي تختلف عنده العقوبة باختلاف الوجوه..

أيًا كان، فقد كشف لي هذا الموقف عن زاوية معتمة من النفس البشرية تتجلى في مظاهر شتى، ليس هذا إلا صورة مصغرة منها، وفي ذاكرة كل منا

صور أكثر وضوحًا وأشد قتامة منه، لئن اختلفت في أشكالها فقد اتفقت في مضامينها.. فهذا شاب قضى زهرة شبابه في التعلم ثم وجد أبواب الوظائف تصك في وجهه وتفتح على مصراعيها لزميله (ابن فلان)!.. وذاك سارق السر يقطع يده سارق العلانية.. وتلك مخطئة يلعنها الناس وينسون الأثيم الذي استغل سذاجتها أو انتهز حاجتها...

كل هذه مشاهد تتكرر كثيرًا وتظهر بجلاء كيف يبدل الناس آراءهم ومواقفهم كما يبدلون ثيابهم، وكيف يغدو الحق لديهم باطلًا إذا «اقتضى الحال والمصلحة ذلك»!

إن الحياة دروس من أولها إلى آخرها.. الكل يلقي الدروس والكل يتلقاها، ولكن القليل من يفهمها.

* * *

في سنوات المرحلة الابتدائية كانت المدرسة تعاني نقصًا في الكتب المدرسية، فكان الطالبان – وربما الثلاثة – يشتركان في الكتاب الواحد، يراعى

في ذلك أن يكونا شقيقين أو تربط بينهما صلة الجوار، ولأن أحد أشقائي أو جيراني لم يكن يشاركني صفي في ذات عام دراسي فقد استبدلت بهم جاري في الصف، غير عابئ بتنائي ديارنا، إذ كان يسكن في القرية المجاورة لقريتي، فكان ربما ذهب أحدنا للآخر في مساء اليوم السابق للاختبار لأخذ الكتاب منه، بعد أن أخذ الأول منا حصته من الزمن واستذكر دروسه من حين رجوعه من المدرسة ظهرًا.

بعد انتهاء العام الدراسي نعيد الكتب إلى المدرسة، ولا تُقبَل ممن يحضرها ممزقة أو مشوهة، ويغرم قيمتها، فيلجأ بعض الطلاب إلى تغليفها وإضفاء شيء من الجاذبية على ذلك الغلاف ليستروا سوء المخبر بجمال المظهر! والطالب الذي يقع في يده ذلك الكتاب في العام القادم يكون ضحية إهمال الطالب السابق، فليس من السهل استبدال الكتاب إلا بمثله أو أسوأ، هذا إن وجد البديل أصلًا.

ومن طرائف انتقال الكتاب من يدٍ إلى أخرى أن يوجد على غلافه عدة أسماء لطلاب كلهم سبق أن اقتنوه، بعضهم يتقدم على الأخير ببضع سنوات، كما تكون أسئلة الكتاب قد سبق الإجابة عليها وبأكثر من طريقة في بعض الأحيان؛ لذا فعندما كان المعلم يطلب منا الإجابة عن سؤال ما فيبادر إلى ذلك طالب غير نابه بطريقة لم نعتدها منه، فلا يخفى علينا في مثل هذه الحالة أنه لم يفعل أكثر من قراءة الجواب المدون في الكتاب بخط أحد الطلاب السابقين.

ولما كنت ألهو أحيانًا بقراءة شخابيط هؤلاء التلاميذ المتناثرة في الكتاب فقد خطر في بالي أن أدوّن شيئًا مفيدًا يطلع عليه الطلاب الذين ستقع هذه الكتب في أيديهم مستقبلًا، فعمدت إلى كتابة عشرات الأسئلة الثقافية وأجوبتها، بحيث كنت أدوّن السؤال في صفحة والجواب في أخرى بعيدة عنها، ومع كل سؤال رقم الصفحة التي دوّنت فيها جوابه.

كان ذلك في سنوات التعليم الأساسي، ثم جاء اليوم الذي دخلت فيه الثانوية العامة وكلي شوق لهذه المرحلة الجديدة، ورغبة أكيدة في خوض هذه

التجربة التعليمية المختلفة عما سبقها. استلمت كبقية زملائي كومًا من الكتب، بعضها مقرر للعام الدراسي الأول بفصليه، وبعضها الآخر خاص بالفصل الدراسي الأول منه فقط، فقد تشعبت المواد الدراسية أكثر من ذي قبل، وأصبح لبعض المواد أكثر من كتاب يستوعب فروعها، أخذتها من المسؤول عن الكتب ومضيت أفكر: كيف يمكن أن نستوعب كل هذه الكتب في فترة زمنية قصيرة؟!

إن مشكلة نظامنا التعليمي أن الكم فيه مقدم على الكيف، وحشو المعلومات هو السائد على حساب تدريب الطلاب على حسن الفهم والاستنباط والتفكير، وعلى هذا الأساس يعد الطالب الجيد هو من يجيد حفظ قدر كبير من المعلومات، أما كيف يستخدم هذه المعلومات، وكيف يربط بعضها ببعض، وكيف يستنبط منها معلومات جديدة تضاف إلى رصيده المعرفي، كل هذا لا يمكن أن يمنحه نظام تعليمي كهذا الذي أوقعنا حظنا البائس فيه.

إن الهوس المعلوماتي وحده لا يصنع عالمًا أو مثقفًا إن لم يصحبه تفكير عميق ومقدرة على التوظيف الجيد للمعلومات، وهي مهام ذهنية شديدة التعقيد، لابد لتحقيقها من المران والممارسة المستمرين.

ومشكلة أخرى ترتبط بسابقتها ولا تقل عنها سوءًا، تلك هي إلزام الطالب في المرحلة الثانوية بدراسة كثير من العلوم والمعارف، فيلهث متنقلًا بينها من حصة إلى أخرى، ثم لا يخرج في الأخير بكبير فائدة، ذلك أن من رام أن يتعلم كل شيء فاته كل شيء، وكما قيل: «من اشتغل بما لا يعنيه يفوته ما يعنيه»، فلو اقتصر الأمر على علم واحد يتعلمه الطالب بكثافة لكان أنفع له وللمجتمع.

هذا التخصص الذي أتحدث عنه لا يحل مكان التخصص الجامعي ولا يعكر عليه، بل يمهد له، ويسهم في استغلال سنوات من عمر الطالب بشكل أفضل، فإن سنوات تسع من التعليم الأساسي كفيلة بأن تمنح الطالب إلمامًا

جيدًا بمبادئ العلوم وأساسياتها، وأن توجهه نحو العلم الذي يجد له في نفسه رغبة وميل.

وهذا التخصص يخلّص الطالب من التشتت الذي يصطدم به في المرحلة الثانوية دون أن يجد الخلاص منه حتى في اختيار أحد القسمين: الأدبي والعلمي.

أما في الجامعة فقد كادت أن تختفي الكتب كمرجع للطلاب لتحل محلها مذكرات هزيلة توهم الطالب بحيازة ما تفرق من علم في بطون الكتب، بينما هي في الحقيقة لا تمنحه سوى جرعات خفيفة من العلم لا تغني عن البحث الذاتي من المصادر المعتمدة.

هذا الاعتماد على المذكرات من شأنه أن يكون حاجزًا بين الكتاب وبين الطالب، إذ يصعب عليه بعد أن يستروح الاتكاء على هذه المذكرات المبتسرة أن يقف طويلًا أمام رفوف الكتب ليفتش عن كتاب يكشف له مناطق مجهولة له في تخصصه المعرفي، فيتخرج من الجامعة زاعمًا لنفسه الإلمام بتخصصه في

الوقت الذي يجهل بعضًا من أشهر مصادره، بل لا يعرف منها حتى عناوينها، وأعرف من خريجي اللغة العربية من لا يعرف الفرق بين (أغاني) أبي الفرج الأصفهاني وأغاني أم كلثوم!

* * *

مضت السنة الأولى من المرحلة الثانوية، وأصبحنا ونحن على أعتاب السنة الثانية أمام خيارين لا مفر من أحدهما؛ إما أن نختار القسم الأدبي بعلومه الإنسانية، وإما أن نذهب إلى القسم العلمي بعلومه التطبيقية والتجريبية.. كان الخيار صعبًا لبعض الطلاب، محسومًا عند بعضهم الآخر، وكنت من القسم الثاني، فالأمر مقرر مسبقًا بالنسبة إليّ، ولم أجد فيه أي حيرة أو تردد..

وجاء يوم التسجيل..

وقفت أمام الأستاذ المكلَّف بتدوين القسم الذي يختاره كل تلميذ، وكانت لي بهذا المعلم علاقة وثيقة.. نظر إليّ بعينين ثابتتين من تحت نظارته وهو يقول:

– هل أنت متأكد من اختيارك؟

هززت رأسي أن نعم.

– لماذا لا تنضم للقسم العلمي؟

– لا رغبة لي فيه.

هكذا اخترت القسم الأدبي بسهولة ويسر، ولسان حالي يقول: ما لي وللقسم العلمي، أنا الذي نشأت في رياض العلوم الشرعية واللغة والتاريخ وفنون الأدب، وقضيت فيها أحلى أوقاتي؟!

اخترت القسم الأدبي، واختار صديق لي القسم العلمي بعد أن مكث أسبوعًا لا يمضي في هذا الشأن عزمًا، ثم لم يلبث غير قليل حتى انتقل إلى الأدبي، وظل بعدها قرابة فصل دراسي يقلب وجوه الرأي ويفكر طويلًا: هل يعود أدراجه إلى القسم العلمي أم يظل في موقعه؟!

ودارت الأيام، ووقف بعضنا مرة أخرى يفكر طويلًا: ما التخصص الذي أختاره في الجامعة؟ وكنت من هذا (البعض)!

كنت أفكر وأحاول أن أعثر على التخصص الذي يجمع الثلاثي المحير (الرغبة والمهارة وتوفر سوق العمل)، فلما كان الجمع بينها مستحيلًا بالنسبة لي رميت بآخرها خلف ظهري، وبلغت بهذا القرار شطر الطريق إلى اختيار التخصص، لكن بقي للحيرة موضع في الشطر الآخر؛ ذلك أني منذ أنست بالكتاب شغفت بالقراءة في العلوم الشرعية والأدب والتاريخ، وهأنذا في مفترق طرق بينها وعليّ أن أختار أحدها تخصصًا في كلية الآداب، وبعد تفكير لم يطل كثيرًا أنخت ركابي بمضارب امرئ القيس والأصمعي والجاحظ في قسم اللغة العربية.. ولكن لماذا اخترت اللغة العربية دون غيرها؟

اخترتها لأن فروعها – والأدب منها خصوصًا – تربطها بالعلوم الشرعية والتاريخ وشائج لا تنفصم.. وهل تاريخ الأدب العربي إلا جزء من التاريخ

العام؟! وهل اكتسبت لغة العرب قدسيتها وخلودها إلا لنزول القرآن بها وكَون النبي محمد صلى الله عليه وسلم من العرب؟!

وقد كانت تؤسفني من بعض الزملاء النظرةُ الدونية للأدب في مقابل علوم اللغة والنحو، فكانوا لا يحفلون به إلا بالقدر الذي يبلغهم تجاوز اختباراته، وبعضهم لا يجد للأدب وظيفة غير تزجية الوقت والتسلية، أو على أحسن تقدير تختزل وظيفته في الترويح عن النفس من مشقة الدرس والتحصيل، بل يتطاول السخف بأحد الكاتبين فيسخر من انكباب الدارسين على قصائد عفا عليها الزمن في الوقت الذي هبط فيه الإنسان على سطح القمر، ويجهل هذا المتحاذق أن (إنسان القمر) يحتفي أشد الاحتفاء بأدبه الموغل في القدم كالملحمتين الإغريقيتين (الإلياذة والأوديسة) رغم إغراقهما في الخرافة والأساطير.

ما يجب أن يترسخ في أذهان الطلاب على اختلاف تخصصاتهم أن الأدب ليس ترفًا يمكن الاستغناء عنه، فإن المتحدث العادي لا يبلغ من غيره في

قيادته إلى الحق والخير والجمال ما يبلغه الأديب بما أوتي من بلاغة وبيان.. ومن ناحية أخرى فإن مشاعر الإنسان مائجة لا تنضبط، وليس أقدر من الأديب على التعبير عنها.. وإذا لم يعبر الأديب عن لواعج الشوق وأنين البؤس وعن معاني الحب والتضحية والوفاء فمن يعبر عنها؟!

إن الأديب وحده هو من يستطيع أن يصور المشاعر بكلماته ويجعلها ماثلة أمامنا حتى لتكاد تكون ناطقة متجسدة..

وإنه بهذه الموهبة يستطيع أن يصور الجميل قبيحًا، والقبيح جميلًا، والحق باطلًا، والباطل حقًا..

أفبعد هذا يصح أن يقال في استخفاف: ما فائدة الأدب؟!

وبعد، فالأدب العربي – شعره ونثره – هو ديوان العرب، تجد فيه أخبارهم وأنسابهم ومآثرهم ولغتهم، ولهذا حوت كتب التاريخ واللغة والأنساب قدرًا كبيرًا من الشعر ومن أقوال العرب المستلّة من أمثالهم وخطبهم.

وأدب العرب أيضًا هو الأصل – بعد القرآن – الذي يجب أن يركن إليه دارس اللغة، فالعربية في الأدب حية متوثبة، بينما هي في معاجم اللغة هامدة لا حياة فيها، وإنما دوِّنت هذه الكتب جمعًا لما تفرق من لسان العرب، وتيسيرًا للدارس الذي غزت العجمة لسانه.

اخترت لغتي تخصصًا في الجامعة، وجاء صديقي سالف الذكر ليختار تخصصًا أبعد ما يكون عن إمكانياته، رجوته أن ينأى بنفسه عما اختار فأصرّ ولم يتراجع، ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى تنبه للفارق بين التخصص والإمكانية فاختار تخصصًا آخر، لكنه كرر الخطأ الأول فعاد في العام التالي ليختار تخصصًا جديدًا لم يلبث فيه غير قليل قبل أن ينهي مسلسل تخبطه ويغادر الجامعة بلا رجعة.

إذن كيف يحسن الطالب اختيار تخصصه الجامعي؟

السبيل الأوفق فيما أرى هو أن يفتش في خبايا نفسه ليعرفها جيدًا ويدرك ما تميل إليه وما تجيده، ومن ثم يعمد إلى استشارة ذوي المعرفة والتجربة، ويطلع

على المقرر دراسته في التخصصات التي يجد نفسه مترددًا في الاختيار بينها، وذلك لكي يقيس ميوله وإمكانياته العلمية فلا يختار إلا عن قناعة ودراية، وقبل كل ذلك لابد من الاستعانة بالله عز وجل وتفويض الأمر إليه.. أما أن يظل الطالب طويلًا يقدم رجلًا ويؤخر أخرى حتى إذا دهمه الوقت هجم على تخصص لا يجد ميلًا إليه ولا تعينه عليه إمكانياته العلمية، فالفشل هو النتيجة المتوقعة في مثل هذا الحال.

* * *